ابن الفارض بين دارسيه في مناهج الحداثة وما بعدها (دراسة في ضوء نقد النقد)

داليا علي الياسري

أ. د علي كريم المسعودي

جامعة كربلاء– كلية التربية للعلوم الإنسانية – قسم اللّغة العربية

الملخص

إنّ توجه النقد الحديث إلى البنية اللغوية للنص الأدبي ونأيه عن سياقات خارجة عن حدوده، يخلق في كثير من الأحايين رؤى جديدة تتمظهر عن طريق ترابط الألفاظ وتراصها، وكلّ ذلك يتم مع استغفال متقصد لظروف نشأة النص ذاته لكن مع نص صوفي قائم على التستر والتلميح لا على الابانة والتوضيح قد يجعل في مثل هذه الدراسات تنحرف عن معناها المراد، فاللغة الصوفية لابد لها من العودة إلى مبدعها ومنتجها، وذلك لعدة أسباب منها: أنّ التصوف تجربة فردية وما يعتري صوفي مالا يمكن تعميمه على متصوفة آخرين، كما أنّ لهم مصطلحاتهم ومعانيهم التي لا تُفك شفراتها ولا تتجلى دلائلها إلا بعودة تاريخية، ونفسية... وعليه نلحظ استعانة الدارسين بتلك الجوانب في دراساتهم وفي أحيان كثيرة بمناهج الحداثة.

Summary

The tendency of modern criticism to the linguistic structure of the literary text and to distance it from contexts beyond its borders creates new visions that appear through the interconnectedness and clustering of words, and all of this is done with a deliberate disregard for the circumstances of the emergence of the text itself, but with a mystical text based on concealment and allusion, not on The clarity and clarification may make such studies deviate from its intended meaning, for the Sufi language must return to its creator and product, for several reasons, including: Sufism is an individual experience and what a Sufi is experiencing cannot be generalized to other Sufis, as they have their terms and meanings that cannot be deciphered. Its blades, and its indications are only evident in a historical and psychological return ... and accordingly, we notice the scholars 'use of these aspects in their studies, and in many cases, the methods of modernity.

مقدمة:

ابن الفارض شاعر القرن السابع الهجري المولود في القاهرة سنة(576هـ) والمتوفى سنة(632هـ)، له ديوان شعر نحا به طريقة الفقراء[1]، إذ تتبع فيه نهج الصوفية وسلك مسلكهم في أشعاره، نال ديوانه اهتمام الدارسين المحدثين موجهين مناهجهم صوب قصائده، شارحين تارة، ومحللين تارة أخرى تبعًا لاختلاف مناهجهم واتجاهاتهم، فتعددتْ مسالكُ النّقادِ في دراسةِ النّصوصِ الأدبيةِ تعددًا مُتعاقبًا، فبعد أنْ كانَ الناقدُ يحاولُ الإجابةَ عن (ماذا قال الأديب؟) أصبحَ الميلُ إلى تساؤلٍ آخرٍ وهو (كيف قال الأديب؟)[2]، إنّ هذا النأي عن المعنى وهو المُتمثل بالتساؤل الأول هو أشبهُ بنفضةٍ لكمٍ من الدراسات "الموضوعية" فوق أكتاف النقد، فتولّدَ إقبالٌ . كردّ فعلٍ . نحو الشّكلِ الذي هو رديفٌ للمعنى، فجاءت دراسات حديثة لتدرس النّص داخليًا وهو ما ضمّه التساؤل الثاني في كيفيةِ الكتابةِ وفي هذا استمالةٌ للغةِ؛ كونها آلةَ القولِ ووسيلتِهِ، من هذهِ المناهجِ تلكَ التي طوّعَهَا دارسُو ابن الفارضِ وهُمّ قِبالة ديوانِهِ، فقد تنوعتْ مناهجُهم و أدواتُهُم النقديةِ في دراسةِ النّص الأدبي مِن كونِهِ لغةً أدبية، إذ اتجه الشّق الأكبر من هذه الدراسات نحو الاسلوبية، وبعضها صوب البنيوية، فالتفكيكية، وآخرها السيميائية، فجاء هذا البحث كصوت ثالث لتعقب آراء الدارسين حول الشاعر.

أولًا: الأسلوبية:

كانت من مُحصلة التّوجه اللغوي لـلأدبِ ولادةُ اتجاهٍ نقدي "يُعنى بالكيان اللغوي للأثر الأدبي، يبدأ من لغة النّص وينتهي إليها"[3] متمثلًا بما يُعرف بالأسلوبية.

ظهرتْ الأسلوبيةُ خلالَ القرنِ التاسع عشر عند الغربيين لكنّها لم تصل إلى مفهومها الذي عليه اليوم حتى أوائل القرن العشرين مع ظهورِ النّهضة اللغويةِ التي أكدتْ الصلةَ بين المباحثِ اللغويةِ والآدابِ، ومع (شارل بالي)[*] تأسّستْ على يديهِ القواعدَ الأسلوبيةِ كعلمٍ[4]، لم تكن ولادةُ قواعدهَا بقفزةٍ من عدم؛ إنّما هي في حقيقتها تَجمُّع نقاط التقاء لكل من البلاغة، واللغة، و النقد، فهذه كانت أقرب الروافد التي استقت الأسلوبية آليتها منها، لكنها تجاوزت ما لهذه العلوم من غايات وجدتها لا تنسجم واتجاهات الحداثة، فقد حاولت تجنب المزالق التي

وقعت فيها البلاغة القديمة من حيث إغراقها في الشكلية، وتجاوزت ما للنقد من قضايا تحكيمية تقييمية أو ربط النص بما هو خارج عنه لأجل التعليل و التبرير في حين ينصب تركيزها على التفسير و التحليل[5]، ولكي تتم إجراءات التفسير والتحليل صيغت لها مستويات جعلها الدارسون سبلًا لممارسة "أسلوبيتهم" في دراسة وتحليل النصوص الأدبية.

استطاع ديوان ابن الفارض أنْ يُطوّع أقلام الدارسين بتعدد اتجاهاتهم وتنوعها وأنْ يُخضع له اهتمامهم وعنايتهم، لغناه اللغوي وثرائه الأدبي، وهذا ما دفع (رمضان صادق) بعنونة دراسته (شعر عمر بن الفارض دراسة أسلوبية)، فذكر في مقدمة كتابه: أنّ لغة الشعر الصوفي "تكتسب أبعادًا وإيحاءات ودلالات رمزية تتجاوز دلالاتها في غيره من أنماط الشعر الأخرى... ويصبح التعرض لشعر عمر بن الفارض اختبارًا جادًا لجدوى المنهج الأسلوبي"[6]، فالتنوّع في مستويات الأسلوبية –الصوتية، والتركيبية، والدلالية– كآليات للدراسة كان لها أن تخدم هذا النص الصوفي بلغته الثرية نغمًا ولفظًا ودلالةً...

جاءت هذه الدراسةُ مخلصةً للمنهجِ الأسلوبي، فلم يشوبها ما يسمى بـ"الاضطراب المنهجي" لما يتخللها من دراسة للغة ومستوياتها، وتحليلها للكشف عن دلالات صوفية، وذلك عن طريق ظواهر الكم والكثرة بالاستناد إلى أرقام الإحصاءات، فكلّ الظّواهرِ التي عرضَها الدارسُ كانت تحت سطوة الأعداد والحسابات، فعلى المستوى الصوتي أظهرت الأرقام أن البحر الطويل مقارنة بباقي البحور شغل نسبة 64% من الديوان، وشغلت القافية التائية نسبة 52% من الديوان والأمر ذاته مع الجناس، و المقابلة، والأبنية الشرطية والاعتراضية، ... وهكذا مع باقي الظواهر التي تقصتها الدراسة كي يكون لها وزنها في الجداول الإحصائية للأسلوبية.

تتجلى دلالاتُ هذه الظواهرِ في فَلك التّجربةِ الصّوفيةِ حصرًا، على الرغم من أنّ الدّارس تركَ بعضها من غير إجابة كسبب اختيار البحر الطويل وهو بحر قلّ استخدامه في ذلك العصر[7]، وسبب اقباله على أصوات روي انصرف عنّها الشعراء كالياء الساكنة و الذال[8]، لكننا يمكن جعل قوله: "لا يخلو شعر ابن الفارض من

ميل شديد نحو اثبات الذات وتأكيد التميز والتمرد على الراسخ والاستحواذ على المتلقي"[9] تفسيرًا للولوج في مسالك أهملها الآخرون.

في حين كان لبعض تلك الظواهر دلالات وتفسيرات أخرى، ففي هذا البيت:

[الكامل]

"يا مانِعي طيبَ المَنامِ ومانِحي ثوبَ السّقامِ بِهِ ووَجْدِي المُتْلِفِ"[10]

يرى أن التقابلات الضّدية كشفت عن دلالة إثبات قوة المحبوب مقابل ضعف المحب وعجزة[11]، قد يكون هذا موفّقًا في بعض حالاته لكنه ليس بالمطلق. كما وقد كشفت الثنائيات المتقابلة المتمثلة بالطباق عن دلالات أخرى تتجلى خلفها مفاهيم صوفية كالتصورات الوجودية، والمنظور المعرفي، والسلوك الصوفي... تتمظهر الأولى في ألفاظ الحياة و الموت والتي وردت ثلاث عشرة مرة، في حين مثلت الثانية الظاهر والباطن وهو ما عُرف به الصوفية واردًا عشر مرات ، أما السلوك فيتجلى في ثنائية الطاعة والمعصية ووردت تسع مرات في الديوان[12]، إنّ هذه الإحصائيات تكاد لا تفارق ظاهرة من تلك التي أجلاها الدارس لشاعرنا، كما وجاءت بدلائل تفسيرية كمحصلة لنتائج الكم تلك...

أما ما يؤخذ على هذه الدراسة هو الأحكام النقدية التي أطلقها الدارس بين بيت آخر وهو في خضم دراسته، ولأن الأسلوبية لا يصدر عنها تقييمات ذوقية أو نقدية –كون هذا من عمل النقد– لكننا نلمح له أحكاما هنا وهناك، ففي هذا البيت:[الكامل]

"يا ما أُمَيْلَحَ كُلَّ ما يرْضَى بِهِ ورُضابُهُ يا ما أحَيْلاَهُ بفي"[13]

لما فيه من طباق بين (أميلح وأحيلى) والتجنيس في (يرضى به ورضابه) فأبدى استحسانه لما للشاعر من مقدرة فائقة [14]، وغير ذلك من تعابير الاستحسان كالندرة والروعة والبراعة، والفرادة[15].

مما تجب الإشارة إليه هو التوافق بين الأهداف التي استهلّ بها الدارس دراسته وبين فحوى الرسالة؛ إذ كشف عن أبنية لغوية أثيرة وفضلى نتيجة تفوقها عددًا ونسبةً كما هو في الجناس وبعض أصوات الروي ... والهدف الآخر تمثله تلك المقارنات في مواضع متفرقة من الرسالة بين تلك اللغة الصوفية الفارضية وغيرها من الأنساق الشعرية الأخرى بالاستفادة من الصور الفنية .

ثاني الدراسات الأسلوبية رسالة ماجستير قدمها (هشيار زكي حسن) بعنوان (التائية الكبرى لابن الفارض دراسة أسلوبية)، اختلفت عن سابقتها بتحديدها لاتجاه واحدٍ من قصائد الديوان، وهو نظم السلوك تائيته الكبرى وقلب ديوانه وهذا أعطى دراسة مكثفة لقصيدة واحدة، وما يسفر عنها هو ما يمثلها لا يمثل الديوان ككلّ مثلما تجلى في الدراسة السابقة...

كما هي عادة دارسي هذا الاتجاه جاء تقسيم فصول الرسالة على مستوياتها الثلاث: الدلالية، و الصوتية، والتركيبية، وكلّها تنبع وتصبّ في التائية، ومثلما أجمع الدارسون على ما للتائية من سمات صوفية تفردت بها عن باقي الديوان؛ كونها ترجمة آنية للتجربة الصوفية، فآثر الدارس أن يجعل من المستوى الدلالي ترجمة للأحوال الفارضية، ابتداءً بالعنوان للكشف عن علائق دلالية بين العنوان والنص خاصة وأن للقصيدة عنوانين: (لوائح الجَنان وروائح الجِنان)، و (نظم السلوك)، ففي الأول أدلى الدارس بقوله: "ثمة حركة يتجاذبها طرفان، القلب بوصفه معادلاً رمزيا لهذه الذات واللوائح بوصفها معادلا رمزيا للارتقاء الروحي، وبتآزر الحركتين تتشكل فاعلية العنوان نحو تأسيس شعرية توحي وتتعانق لخلق ومض دلالي يكسر الاطار المعجمي"[16] فالشق الأول من العنوان سبيلٌ لبلوغ ونيل شقّه الآخر ،أما العنوان الثاني – الذي استقرّ بعد الرؤيا– هو بمثابة انعكاس لمجموعة من التكوينات الفكرية لدى المتصوفة فهي تمثيل رمزي لعالم الروح التي تسعى الذات الصوفية لبلوغ اعتابه واستشراف انواره[17]، إنّ هذا التنبه إلى الكشف عن دلالة العنوان وجعله مفتاحًا عن طريق استجلاء تلك العلائقية هو ما تفرّد به الدارس.

كان العنوانُ البدايةَ لصياغةِ سلسلةٍ من الأنساقِ الدلاليةِ بعضُها تجلى خلفَ أنساقٍ لغويةٍ كالمماثلةِ، والمشابهةِ، والمجاورةِ، والمفارقةِ. والثانيةُ تراءتْ خلفَ أنساقٍ رمزية للمفاهيم الصوفية كالخمرة، والحبيبة، والطبيعة. وآخرها كان نسقٌ للحروف والأشكال... إنّ النصَّ الصوفي بشكلِهِ العام نصٌ مفتوحٌ على دلالاتٍ غير متناهية وهي بذات الوقت متباينة؛ كونها تمثل تجربة فردانية مرّت بأحوال وأذواق ومواجيد كغيبة، وسكر، ومشاهدة، وتجلي، وفناء... أدى إلى ثراء لغوي ومفهوماتي إذ رأى د. هشيار زكي "إن ظاهرة الكثافة في التائية الكبرى ترجع إلى كونها لغة اسرار ، وتفردها في تقنيات الرمز والتشفير يرجع الى تفردها في التجربة ، التي اكسبت لغتها التفرد ، ذلك أن اللغة الفارضية اشارية خاطفة تدهش وتصطدم بجدار اللغة المستهلكة"[18] وعليه فمهما أتسعت رؤى النقاد والدارسين تظل تحوم حول فضائها من دون أن تلتمس لها كوكبا.

أما في المستويين التركيبي و الصوتي فقد عمد في الأول على الكشف عن الاثر المتولد من تواشج ثنائية التركيب والدلالة، مقسّم إياها إلى مباحث أربعة: هي النفي، والرتبة، والأفعال، والضمائر. في حين جاء الفصل الأخير منقسما على العروض، و الإيقاع، وتجمعات صوتية...إذ كان للتائية غنى دلالي وتنوع تركيبي، وثراء صوتي أسفر عنه هذا التعدد في موضوعاتها.

مما يُلحظ في هذه الدراسة خلو بعض مباحثها من الارقام الإحصائية ، فجاء الفصل الأول مجردًا منها، أما ما تلاه فنلمح له حضورًا في أبنية النفي بعد أن تصدرها الحرف(لا) بتكرار (106) مرة في نظم السلوك وحدها، يرى الدارس في هذه الأبيات: [الطويل]

" ولا سَعَتِ الأيَّامُ في شَتِّ شَملنا ولا حكَمَتْ فينا الليالي بجفوَة

ولا صبَّحَتْنا النائباتُ بنَبوَةٍ ولا حَدَّثتنا الحادثاتُ بنكبةِ

ولا شنَّع الواشي بصدٍّ وهجرةٍ ولا أَرجفَ اللاحي ببينٍ وسلوةِ"[19]

ما للنفي من أثر أسلوبي فعلى ما تدليه من بُعد سلبي قد أقامت ببُعد إيجابي للتجربة الفارضية، وذلك لما أثبتته من ثنائيات "غايتها اثبات وجود داخلي ممتلئ بالحركة والنشوة في مقابل وجود خارجي يعاني من الخواء الروحي

والمعنوي المحاصر بالمكابدات اللاذعة"[20]، إذ أعانت بنية النفي – لا – على إيصال معنىً منشود بنفي قرينهِ المُرادف لـهُ... وكذلك الأمر مع أبنية الأفعال فبعد أن أحصاها– د. هيشيار– يلحظ تقدم الفعل الماضي بتكرار(849) مرة، مُعللًا: "الصوفي الشاعر يسرد تفاصيل رحلة كشفية مرهقة آتت اكلها في التصعيد والارتقاء لتمحو الدلالات القديمة وتنتج دلالات غيرها، على نحو لانهائي، فالتجربة الصوفية رهينة النقض والبناء وذلك يفضي إلى الديمومة والتخلق، فثمة غاية دلالية أو جبت هيمنة الأفعال الماضية"[21]، والفعل الماضي في حقيقته هو تجسيد للحنين الذي يرافق الصوفي ولا ينفك عنه حتى تهجر روحه بدنه، فهو احساس دائم بالبعد الزمني.

أما فصله الأخير فكانت عنايته بالأصوات ، إذ أحصى الجناس في التائية ووجده مكررًا (73) مرة، فيرى الدارس أن الأثر المتولد من رنين الألفاظ وجرسها في ذهن الصوفي يُحفزه لإيراد اشتقاقات لفظية وتعدد هذه الاشتقاقات وسيلة لتحديد الحال الذي يعبر عن شعور معين[22] مسوغًا لهذه الكثرة وفي هذا صواب إذا أخذنا بالحسبان ضيق العبارة الشعرية عن اتساع الرؤيا الصوفية ...

لم يكن المنهج الأسلوبي مقتصرًا على هاتين الدراستين بل هناك دراسات أُخر لكن جاءت مقتضبة موجزة، توقف الدارسون عند مَن شغلهم شغفًا ورغبةً محاولين الإحاطة الجزئية ببعض مقابض الديوان، لكن اختصارها حال دون ذكرها[23]..

ثانيًا: دراسات مفردة:

ثاني المناهج النقدية التي لا زالت ممسكة بالبحث اللغوي والألسني أثرًا واعتمادًا هو المنهج **البنيوي**، يُعرّف بأنه: "منهج فكري نقدي مادي، يذهب إلى أن كل ظاهرة إنسانية كانت أم أدبية تشكل بنية، لا يمكن دراستها إلا بعد تحليلها إلى عناصرها المؤلفة منها... ونقطة ارتكاز هذا المنهج هي الوثيقة، فالبنية لا الإطار هي محل الدراسة"[24]، إذ هو اخضاع النصوص لمنهج قائم على حدود لا تتجاوز النص نفسه، فالنص عندهم هو من ينطق عن معناه ومراده وبه تُفكّ شفراته ومرمّزاته.

إنّ الحديث عن تأصيل المنهج في الفكر الغربي لا يثري الرسالة بقدر ما يغنيها ماهية المنهج نفسه... البنيوية بمفهومها جاءت كتلبية لنداء: "دع المقال وحده يتحدث"[25]، وعليه سعى فريق من دارسي ابن الفارض إلى محاولة تحليل نصوصه من كونها وثيقة نصية لغوية "كعلم ذري مغلق على نفسه، وموجود بذاته، فتدخل تبعا لهذا المفهوم في مغامرة للكشف عن لعبة الدلالات"[26]، وكما مرّ بنا ما للشعر الصوفي و الفارضي بوجه الخصوص من ثراء دلالي وإيحائي غير متناهي، أسفر عنه رغبة عند أقلام الدارسين بالخوض في لجّة النهج البنيوي.

كانت دراسة كل من الباحثين (مجيد صالح وكبرى راستكو) التي ارتسمت بعنوان (الايقاع الداخلي في شعر ابن الفارض) دراسة بنيوية مقتضبة، إذ شكلت من البنية الصوتية منطلقًا ومنتهى لها؛ كونها قد أغفلت عن السمات والمستويات الأخرى للبنيوية.

تبنت الدراسة ظاهرة التكرار الحرفي، و الإسمي، والفعلي كأبنية مفردة خاضعة للدراسة، جاعلة من هذه الأبيات: [الطويل]

"وإن ذُكرَتْ يوماً فخُرّوا لذِكرها سجوداً، وإن لاحت الى وجهها، صَلّوا

وفي حُبّها بِعْتُ السعادةَ بالشّقا ضلالاً، وعقلي عن هُدايَ، به عقلُ

وقُلْتُ لرُشْدِي والتنَسكِ والتُّقى: تَخَلّوُا، وما بيني وبين الهوى خَلّوا"[27]

أمثلة للتكرار الحرفي وهو تكرار الواو كبنية مفردة قائمة على دلالة ذاتها فهي من أنطقت المعنى بواسطة بنيتها، لما أفاضته من ترابط فني وموضوعي على القصيدة، وما عملته من الاستمرارية بين الأبيات لتوضيح معانيها، فضلًا عن كونها أداة تمتد لإقامة جسر صوتي بينها[28]، وعن طريق الوقوف عند أقل بنية صوتية في الكلمة المتمثلة بالفونيم النون في تائيته الصغرى رأت الدراسة ظاهرة تكرار حرف النون، استلهم الباحثان ما للنون من سمات دلالية كونها الحرف النوّاح لارتباطها بالألم والأسى، فرأيا فيه استدلالًا لحال الشاعر وتوافقًا لنفسيته؛ فهو

يتحسر على عهوده السابقة التي انقضت ليعيش زمن الغربة والحيرة[29].وفي هذا التأويل نلحظ أن الدراسة قد استدعت ما هو من خارج النص، وهو ما نعني به تلك الحالة النفسية للشاعر والتي كانت منبثقة من عقيدة ومذهب... وهذا ربّما يُعلل سبب نَزْر دراسة الشاعر في هذا الاتجاه، إذ أنّ الشعر الصوفي والفارضي تحديدًا لا فائدة ترجى من المكوث على دراسة أبنية تراكيبهِ وجملهِ بمنأى عن المعنى – أو بمعنى ثابت متمركز– وعن حال الشاعر النفسية و الفكرية.

من الدراسات كذلك ما جاءت بعنوان (الفيزياء الصوفية: شعر ابن الفارض أنموذجاً) قدمته (د. سمر الديوب)، فكثيرًا ما ذكر البنيويون الفيزياءَ وهم يُنظرّون للبنيوية، وفي مقدمتهم (جان بياجيه)[*]، الذي جعل الرابط بينهما هو مبدأ السببية تحديدًا من مسألة العلاقات بين البنيات الطبيعية[30]، فسبب تراص البنيات وعلّة وجود تلك البنية عن غيرها في النص هو تساؤل فرضته البنيوية وبذات الوقت هو من أهم المفاهيم الفيزيائية.

استلهمت الباحثة الربط البنيوي الفيزيائي لكنّها توسعت إلى مفاهيم الفيزياء الطبيعة أي ما هو أبعد من السببية متخذة منها مادة للدراسة كالجزء والكل، والزمن لتنتقل بنا إلى اتجاه دراسي آخر لا يُحجّر المعنى أو يجمّده بل يعود به إلى الومضة الأولى التي أضاءته فيحرر معانٍ طليقة وهو الاتجاه التفكيكي.

جاءت **التفكيكيـة** ثورة على النزعة الوصفية للمنهج البنيوي بعد ان رفضت استراتيجيته في البناء داخل النّص، مقدمة نفسها بوصفها طريقة نظر مختلفة للخطاب الأدبي، هدفها تحرير عمل المخيلة القرائية بغية الوصول إلى آفاق بكر للعملية الإبداعية[31] أي هو منهج يعوّل على الناقد القارئ لا على النص فقط ولكن هذا لا يعني الاحتكام الذاتي، فالقراءة التفكيكية تظلّ في حيّز النص عن طريق قراءات مفترضة تبحث في أصل الهيأة التي صيغت له واستقرت عليه.

أوضحت الباحثة في مقدمة دراستها أنها ستعمد على الاهتمام "بتفكيك طريقة تفكير الشاعر الصوفي القائمة على أسس من الميتافيزيقا وتحويلها إلى سمة يقينية، فيزيح التفكيك المقولات الثابتة، ويشارك في لعبة

المعاني في النص الشعري. إنه إزاحة لا نهائية للمعنى"[32]. إنّ هذه السّمة اليقينية هي نتيجة جراء التشكيك المتولد من المنهج التفكيكي، وهذا لا يعني أنه هدمٌ أو ازاحة بل هو إعادة بناء برسم عمَدٍ ثابت من نقطة انطلاقه حتى مستقر توجهه.

ولأن هذا العلم–الفيزياء– والتصوف يكتشفان واقعاً مختفياً وراء الواقع المادي، كلاهما يراقب، ويعانق الكون، و كلاهما يرتد إلى واقع واحد[33] وهو البحث في الماورائيات، فكانت الفيزياء العلم الأقرب نتيجة لما وجدته الباحثة من المشتركات، كالتشابك، والنسبية، والزمن، والديناميكية والرقص ...فتتخذ د. سمر في قول ابن الفارض: [الطويل]

" فلا قبلَها قبل، ولا بَعْدَ بَعْدَهَا وقَبْليُّة الأبْعادِ فهْي لها حَتْم

وعَصْرُ المَدى من قَبْله كان عصرَها وعهْدُ أبينا بَعدَها ولها اليُتم"[34]

من الزمن بعدًا فيزيائيا، استعراض نسبية آينشتاين ذلك البعد – الثالث– المتخيل، وكما أنّ الزمن متخيل عند الفيزيائيين وغير ثابت فهو عند الشاعر الصوفي لا وجود لتقسيمات زمانية كالحاضر والماضي والمستقبل ففي الحضرة الدائمة يكون هنالك إحاطة بالأزمنة كلها، فلا ماض، ولا حاضر، ولا استقبال[35]، ولذلك قيل "الصوفي ابن وقته"[36]، فالزمن أو الوقت مرتبط بالحال وحال الصوفي ليس حاضره الوقتي؛ بل الخلط الزمي والتداخل الوقتي مردّه لحظة الكشف التي تعتري الصوفي.

الأمر لم يكن مقتصرًا على الزمن بل احاطت الدّارسةُ ابنَ الفارض باصطلاحات ومفاهيم علمية عدّة...، وارتأينا إنّ محاولة دراسة الشعر الصوفي من منظور المنهج التفكيكي وإعادة بناء المعنى بإطلاق معان متعددة محاولة تثري الدراسات الصوفية وتفتح مجالات للتأويل والتفكير واعادة بناء المعنى لا لأجل نسفه وازاحته بل لأجل متابعته واستكماله [*] ، لكنّ محاولة علمنة الأدب والشعر الفارضي بوجه خاص على وفق اصطلاحات العلوم– وان كانت طبيعية– هي محاولة واهنة كيف لا الشعر الصوفي شعر قائم على الأذواق والمواجيد.

لم يزل أثر الدراسات اللسانية الحديثة مهيمنًا على اتجاه الدارسين و أدواتهم التحليلية والبحثية في التوجه نحو شاعرنا، منها رسالة الماجستير التي تقدم بها (د. حاتم أوس الأنصاري) متناولًا شعر ابن الفارض دراسة سيميائية.

إن لفظة **السيميائية** كمصطلح في كتب النقاد يعتليه شيء من الضبابية في حين يبدو المفهوم منقشعا ليدلي بمعنى (العلامة)، يُعزى سبب تلك الضبابية إلى ما للعلامة من اتساع دلالي غير محدد؛ لأنها "موجودة في كلّ مكان" [37]، والذي أفرز عنه تداخلًا مع علوم كثيرة، لكنّها في النقد تنافي هذا التوسع إذ تنحسر شيئا فشيئا لتغدو من مناهج الأدب التي ترتكز على الألسنية[38]. إذن السيميائية منهج نقدي لدراسة الأثر الأدبي مستعينًا بآليات الألسنية كالعلاقة بين الدال والمدلول.

إنّ استجلاء هذه العلاقة هو ما تعمل به السيميائية، إذ أخذ د. حاتم الأنصاري من الاصطلاح القائل: بأنها "العلم الذي يدرس كل أنساق العلامات أو الرموز التي بفضلها يتحقق التواصل بين الناس"[39] سبيلاً لجعل ديوان ابن الفارض حلقة وصل ليست فقط بين المتصوفة إنما عن طريق الكشف عن الدلالات وما تحمله من سيميائيات وإشارات متعددة بين عامة القرّاء، فالغاية الأولى التي تسعى إليها السيميائية هي فهم كيفية اشتغال النصوص[40].

أولى محطات الاشتغال التي تنبّه إليها د. حاتم في رسالته هي الفواتح والخواتيم على وفق المفاهيم السيميائية التي استجلت له وهذا ما احتواه الفصل الأول، أما الفصل الثاني فقد عرض فيه التشاكل والتباين ولاسيما تباينات الدلالات الأصلية، والفرعية والإيحائية موزّعة على ستة مباحث فرعية، في حين جاء الفصل الثالث و هو الأخير ممسكًا بأداة التناص من وجهة نظر سيميائية في مباحثه الثلاثة بتناص مع القران مرة ومرة مع الحديث النبوي الشريف مرة ثانية ...

يتجلى جهد الدارس في محاولته لإبانة "نقل الشاعر إحساسه الوجداني للمتلقي ولو كان عاديًا لم يمارس من مجاهدات صوفية ولم يشرب خمرة المعرفة"[41]، إن اللغة الصوفية مهما طأطأت ونهلت من الألفاظ الصريحة تبقى تعرج بلغة خاصة في فضاء الدلالات الصوفية ، إذ أمكن القول أن السيميائية طُوِّعت بيدي

الدارس للكشف عن دلالات تلك اللغة، وتم هذا عن طريق جملة من العلامات التي تشي بدلالات ثنائية أو أكثر اضاءة الدارس في مواطن مختلفة من دراسته.

واستطاع أن يُجلي دلالات فواتح القصائد وخواتيمها عن طريق لُغة النّص ألفاظًا وتراكيبًا.... فنلحظُ في مِطلعِ التائيةِ الصُّغرى: [الطويل]

"نَعَمْ بِالصَّبَا قَلْبِي صَبَا لأَحِبَّتِي فَيَا حَبَّذَا ذَاكَ الشَّذَا حِينَ هَبَّتِ"[42]

قوله: "تكشف هذه البداية قوة الرغبة في النفس الإنسانية في أن يحكي ويحدث أقرانه وأصدقاءه عن حبه لمحبوبه، وعن مواقفه معه"[43]، تأتت رغبة البوح نتيجة السّمة التي اعتلت وجه المحب ومن المؤكد هي مشاعر محبة وشوق وحنين، فجيء بجواب نعم اختصارًا وايجازًا لما أثارته مشاعره من تساؤل وحيرة في وجوه من رافقه.

في مَطلعٍ آخرٍ استعرض – الباحث– ما للقصيدةِ الخمريةِ من علاماتٍ جعلتْ منها وعلى الرغم من غموضها وتعدد ما قيل فيها ذات دلالات واضحة جادة، ففي قول شاعرنا:

[الطويل]

"شَرِبنَا على ذِكْرِ الحْبِيبِ مُدَامَةً سَكِرنَا بِها مِنْ قبلِ أَنْ يُخلَقَ الكَرْم"[44]

حصل انزياحٌ دلاليٌ في علامة الخمر عن المدلول المباشر لها نتيجةلجملة من المحددات لا تتعلق بالمطلع بل تتوسط الخمرية و خاتمتها، والمحددات هي تضمين معان تهذيب الأخلاق كالهداية، والحُلم، والجود... وعدم تخللها جسمه، والأمر الأخير إظهار التحسّر لمن فاته نصيب أو سهم من هذه الخمرة[45]، ولنا أن نلمح مقدرة الدارس في الاحاطة المعرفية للخمرة كعلامة متجلية ودلالة متسترة.

أما التناص من وجهة نظر السيميائية ليس مجرد تقنية للأخذ والإحالة، بل أبرزَ الدارسُ لها دلالات عميقة، نقف عند قول ابن الفارض: [الطويل]

"قتلتُ غلَامَ النَّفْسِّ بينَ إِقَامَتِّي الْـ ـجِّدَارَ لِّأحْكامِّي وَخَرْقِّ سَفِّينَتِّي"[46]

من اليسير ملاحظة التناص في هذا البيت مع قصة الخضر (عليه السلام)[47]، لكن جعل هذا التناص علامة سيميائية تشي بدلالات تصبّ في السّلوك الصوفي هذا ما لم يبيّنه غير د. حاتم[*]؛ إذ حلل أبعاد التناص وتداعياته فوجدها على ثلاث دلالات باطنية وعلى مستويات متباينة في العمق وهي: أما قتل الشهوات بالمجاهدة متمثلة بقتل الغلام السيء، وتأديب النفس بالقوة والعزيمة تمثلًا بخرق السفينة، وأما الدلالة العميقة إن وجود سيدنا موسى (عليه السلام) كمتعلق معترض على العمل الصالح غير المفهوم للوهلة الأولى اشارة إلى المتلقي الذي تعجّلَ الحُكم على شِعرِ ابن الفارض، والدلالةُ الأعمقُ ولنا أن نسميها الخاصّة، هو لأجل المقاربة مع إلحاح المُريد لفهم سلوكيات شيخه فيلزمه الصبر لما لها من تأويلات سليمة[48]، وهذا لاشكّ أنه تقارب موقف لا تقارب شخوص، وعليه استطاع الدارس ايضاح ما لعلامة قصة الخضر وسيدنا موسى (عليهما السلام) من بُعد دلالي –أراده الشاعر أم لا– ينسجم وحال الصوفي.

مع السيميائية تختتم المناهج النقدية لنلحظ تنوعًا فكريًا، فيؤخذ بقصيدة في اتجاهات عدّة لتُدرس فنيًا مرة، ومرة اسلوبيًا، وأخرى سيميائيًا وغيرها فيفيض الديوان بكم من المعاني والدلالات تحاول قدر الاحاطة بالشعر الصوفي وما يخفيه الشاعر لتقصير لغته عن استيعاب حالته.

الخاتمة:

تجلى للبحث أنّ محاولات الدارسين بمناهجهم الحداثوية وِفّقت في جانب وأخفقت في جوانب أخرى، ولعل الأسلوبية والسيميائية أكثر تلك المناهج خدمة للنص الصوفي بحقولهما الدلالية، كماظهرأنّ بعض الدراسات جرّدت الشّعر الصوفي والفارضي بوجه الخصوص من البعد العميق للتجربة الصوفية وجعلت الشّعر كواحد من العلوم الصرفة الرتيبة بعيدًا عن مواجيد الصوفية واذواقهم، بما فيه من ثراء دلالي وإيحائي غير متناهي.

الهوامش

([1])ينظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان:454/3
([2]) يُنظر: مناهج النقد الأدبي الحديث، وليد القصاب: 83
([3]) الاسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية،فتح الله أحمد سليمان: 36
([*]) شارل بالي لغوي سويسري من مدرسة جنيف (1947 –1865)، من مؤلفاته: (النظرية المكانية النظرة العامة،والنظرية الأسلوبية الفرنسية، و كتاب اللغويات العامة واللغويات الفرنسية، ينظر: https://mimirbook.com/ar/97c45fd175d
([4]) ينظر: البلاغة والأسلوبية،محمد عبد المطلب: 172، 175
([5]) ينظر: م . ن: 352، 355
([6]) شعر عمر بن الفارض دراسة أسلوبية، رمضان صادق:7
([7]) ينظر: م . ن: 33
([8]) ينظر: م . ن:44-46
([9]) م .ن : 38
([10]) الديوان: 199
([11]) ينظر: شعر عمر بن الفارض دراسة أسلوبية: 39
([12]) ينظر: م . ن: 71-74
([13]) الديوان: 200
([14]) ينظر: م .ن : 57
([15]) وهي كثيرة، منها ينظر م . ن : 39، 103، 110، 187
([16]) التائية الكبرى لابن الفارض دراسة أسلوبية، هشيار زكي: 25
([17]) ينظر: م . ن :31
([18]) ينظر:التائية الكبرى لابن الفارض دراسة أسلوبية:86
([19]) الديوان: 125
([20])التائية الكبرى لابن الفارض دراسة أسلوبية: 93
([21]) م . ن : 122
([22]) ينظر:التائية الكبرى لابن الفارض دراسة أسلوبية: 162-163
([23])من هذه الدراسات: النداء والاستفهام في ديوان ابن الفارض دراسة أسلوبية، فائزة عبد الزهرة جامل، مجلة القادسية للعلوم الإنسانية، مجلد 14، عدد4، سنة 2011 . الشعر الصوفي في ضوء القراءات النقدية الحديثة ابن الفارض نموذجا، بولعشارمرسليأ اطروحة دكتوراه، الجزائر، سنة 2015: 158-216 . الصورة الشعرية في يائية ابن الفارض دراسة اسلوبية، أنسية مرقي، رسالة ماجستير، الجزائر، سنة 2015.
([24])البنيوية وما بعدها بين التأصيل الغربي والتحصيل العربي، وردة عبد العظيم، رسالة ماجستير، غزة،2010: 28
([25]) البنيوية بين العلم والفلسفة عند ميشيل فوكوه،عبد الوهاب جعفر: 35
([26]) المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك، عبد العزيز حمودة: 140
([27]) الديوان: 187
([28]) ينظر: الايقاع الداخلي في شعر ابن الفارض، مجيد صالح وكبرى راستكو، مجلة العلوم الإنسانية الدولية،سنة2013، ع 2/20: 88
([29]) ينظر : م . ن :96
([*]) جان بياجيه (1896-1980) عالم نفس سويسري، من أشهر آثاره (لغة الطفل وتفكيره، سيكولوجية الذكاء، البيولوجيا والمعرفة)، ينظر: معجم اعلام المورد: 125

([30]) البنيوية، جان بياجيه: 34
([31]) ينظر: المناهج النقدية الحديثة – أسئلة ومقاربات : 135
([32]) الفيزياء الصوفية: شعر ابن الفارض أنموذجاً، مجلة نزوى: 86
([33]) م. ن : 96 ومابعدها
([34]) الديوان :191
([35]) م . س: 93
([36]) الرسالة القشيرية: 131
([*]) هذا ما تجلى بعد قراءة من سلك نهج التفكيك في التصوف مثل شريف هزّاع في نقد/ تصوف النص- الخطاب- التفكيك ، وكتاب د. عامر جميل الراشدي النص الصوفي دراسة تفكيكية في نصوص ابو يزيد البسطامي.
([37]) الوجيز في السيميائية العامة: 15
([38]) ينظر: الخطيئة و التكفير: 44
([39])شعر ابن الفارض دراسة سيميائية، رسالة ماجستير، :28
([40]) ينظر: الوجيز في السيميائية العامة: 22
([41]) شعر ابن الفارض دراسة سيميائية: 75
([42]) الديوان: 71
([43]) شعر ابن الفارض دراسة سيميائية: 78
([44]) الديوان: 189
([45]) ينظر: شعر ابن الفراض دراسة سيميائية:81-83 ،والابيات التي جعلها الدارس محددات للعلامة الخمرية هي:

وهَامَتْ بها رُوحِّي بحيثُ تَمازَجَا اتحادًا ولا جِّرمٌ تخلَّله جِّرْمُ
عَلَى نفسِّه فَلْيَ بْكِّ مَنْ ضَاعَ عُمْرُهُ و ليْسَ لَه فِّيهَا نَصِّيبٌ وَلَا سَهْمُ

([46]) الديوان: 167
([47]) ورود في قوله تعالى:
((فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا)) الكهف/71
((فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا)) الكهف/77
([*]) جاءت دراسة أخرى بعوان (شعر شربنا على ذكرى الحبيب مدامة) لابن الفراض دراسة سميولوجية، وهي بحث لنيل الدرجة الجامعية الأولى، أعده بوتري رحماواتي ، جامعة شريف هداية الله/جاكرتا ، إندونيسيا، 2018 ، لكنها دراسة هزيلة موجزة لا فائدة من عرضها في المتن.
([48]) ينظر: شعر ابن الفارض دراسة سيميائية: 227

المصادر والمراجع

- الأسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية، فتح الله أحمد سليمان، مكتبة الآداب ، القاهرة، ط مزيدة، 2004م.
- الايقاع الداخلي في شعر ابن الفارض، مجيد صالح وكبرى راستكو، مجلة العلوم الإنسانية الدولية، ع 2/20، 2013م.
- البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب، دار نوبار للطباعة، القاهرة، ط1، 1994م.
- البنيوية، جان بياجيه، تر: عارف منيمنه_ بشير أوبري، منشورات عويدات، بيروت، ط4 ، 1985م.
- البنيوية بين العلم والفلسفة عند ميشيل فوكوه، عبد الوهاب جعفر، دار المعارف، مصر، 1989م.

- البنيوية وما بعدها بين التأصيل الغربي والتحصيل العربي، وردة عبد العظيم، (رسالة ماجستير)، غزة،2010م.
- التائية الكبرى لابن الفارض دراسة أسلوبية، هشيار زكي حسن(أطروحة دكتوراه) بإشراف د. بشرى البستاني، كلية الآداب، جامعة الموصل، 2003م.
- الخطيئة و التكفير من البنيوية إلى التشريحية، عبد الله محمد الغذامي، الهيئة المصرية العامة، مصر،ط4 ،1998م.
- ديوان ابن الفارض، تح: عبد الخالق محمود، دار المعارف، مصر، ط1، 1984م.
- الرسالة القشيرية، ابو القاسم القشيري النيسابوري، تح: عبد الحليم محمود، محمود بن الشريف، مؤسسة دار الشعب، مصر، 1989م.
- شعر ابن الفارض دراسة سيميائية، حاتم الأنصاري، رسالة ماجستير، كلية دار العلوم، القاهرة،2012م.
- الشعر الصوفي في ضوء القراءات النقدية الحديثة ابن الفارض نموذجا، بولعشارمرسلياً (اطروحة دكتوراه)، الجزائر، 2015م.
- شعر عمر بن الفارض دراسة اسلوبية، رمضان صادق، دار الهيئة المصرية العامة، مصر، 1998م.
- الصورة الشعرية في يائية ابن الفارض دراسة اسلوبية، أنسية مرقي، (رسالة ماجستير)، الجزائر، 2015م.
- الفيزياء الصوفية: شعر ابن الفارض أنموذجاً، سمر الديوب، مجلة نزوى، سلطنة عُمان، عدد103، نوفمبر 2020م.
- المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيكية، عبد العزيز حمودة، عالم المعرفة، الكويت، 1998م.
- معجم اعلام المورد، منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، ط1،1992م.
- مناهج النقد الادبي الحديث- رؤيا اسلامية، وليد القصاب، دار الفكر، دمشق- سوريا، ط2، 2009م.
- المناهج النقدية الحديثة – أسئلة ومقاربات، صالح هويدي، دار نينوى، دمشق- سرويا،ط1، 2015م.
- النداء والاستفهام في ديوان ابن الفارض دراسة أسلوبية، فائزة عبد الزهرة جامل، مجلة القادسية للعلوم الإنسانية، مجلد 14، عدد4، 2011م
- الوجيز في السيميائية العامة، جان ماري كلينكنبرغ، تر: جمال حضري، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط1.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، شمس الدين أحمد بن خلكان ، تح: د. احسان عباس، دار صادر – بيروت، 1970م.